



مبارك الحمداني

العالم الإسلامي .. وحدة جغرافيا أم وحدة عمل؟!!

من القضايا الأساسية والمهمة في سياق البحث المنهج حول مشروعية كيان سياسي أو ثقافي أو جغرافي أو اجتماعي معين أو في مسألة البحث عن واقعه ومستقبله يقتضي الأمر بالضرورة تفكيك المفاهيم الأساسية المرتبطة به. وقياس عمق الوجود الفكري والتطبيقي لهذه المفاهيم في الوعي الاجتماعي الجماهيري من ناحية وفي ملابسات الواقع المعاش من ناحية أخرى. ففي أطروحته المعنونة بعنوان: "العالم الإسلامي والمستقبل" يذهب الباحث سعيد بنسعيد العلوي إلى استشراف مستقبل العالم الإسلامي بالدرس والتحليل بناء على معطيات الواقع الذي تعيشه أقطاره. ورغم أن الأطروحة في تقديره تسير في خط غير متزن منهجياً نوعاً ما من زاوية التعاطي مع القضية إلا أن الدلالات والمقاربات التي بنى عليها العلوي هذه الأطروحة في الشق المهم منها هي الدلالات الأكثر أهمية في سبيل استشراف مستقبل العالم الإسلامي.

بالوحدة في الحديث عن العالم الإسلامي. حيث يخلص العلوي إلى أن الدين الإسلامي يكتسي دينامية وحركية تجعله في حركة دائبة، في حال من اليقظة والحيوية يحمل عليهما ذلك المعيار الإلزامي الذي يستشعر المجتمع الإسلامي أو "الجماعة" الإسلامية في معناها الشمولي الذي يتسع فيشمل كل من كان ينطق بالشهادتين ويعي ذاته داخل "نسق كلي"، كما يعيها في الانتماء إلى جماعة المسلمين. وهذا في تقدير العلوي ركاز أساسي من الركازات الثقافية في النظر إلى مستقبل العالم الإسلامي.

أما السؤال الثاني الذي يطرحه العلوي فهو يسعى من خلاله إلى الإجابة عن مبررات الوحدة في عالم إسلامي سمته التنوع الثقافي. ويخلص إلى القول بأن الهوية الثقافية الإسلامية لا تقوم عائقاً في وجه دعوة "العالمية" بل إنها على العكس من ذلك، تعمل على دعم تلك العالمية وتمكينها من أسباب الفعل وهي كذلك لأن الانفتاح على "الكونية" كان هو السمة الأساس التي ميزت الحضارة الإسلامية فأكسبها الطابع الذي كان مميزاً لها في الوجود البشري.

أما السؤال الثالث فهو يتصل بمبررات عن العالمية- ومن ثم حظوظ الوجود والنجاح في المستقبل للإسلام وأهله. ويخلص فيه إلى القول إلى اعتبار أن التحديات الداخلية التي يعترضها العالم الإسلامي أخطر من التحديات الخارجية التي تؤرقه. حيث تتخذ هذه التحديات صوراً ومظاهر شتى وترتبط بأسباب موضوعية (ارتفاع نسب الأمية في العالم الإسلامي، وارتفاع نسب البطالة، والفقر المدقع، ضعف المجتمع المدني، هيمنة دولة الاستبداد...) وفي تقدير العلوي أن رفع هذه التحديات جميعها هو السبيل إلى الانتصار للقضية التي تقضي بالوئام السعيدة بين التنوع الثقافي في العالم الإسلامي مع الوعي بوحدة الانتماء إلى الهوية الثقافية المشتركة وبين الانفتاح على الكونية والعالمية.

إن النظر في قضية استشراف مستقبل العالم الإسلامي ينطوي في تقديره على أبعاد أعمق وأكثر جذرية مما تطرق إليه العلوي في أطروحته هذه. ذلك أن قوامات ومعطيات النظر في المستقبل تدخل عليها متغيرات كثيرة وتفاوتات نسبة تأثير هذه المتغيرات في بناء صورة المستقبل عبر الأيام. فهناك العامل الاقتصادي الذي همشه جزئياً العلوي. وهناك العامل التقني. والعامل العلمي والمعرفي. إن القضية أبعد ما تكون اليوم من الاتكاء على رسالة الإسلام كوحدة أساسية توحد دول العالم الإسلامي. فالأمر يتعدى ذلك إلى ضرورة الاستيعاب الدقيق لمعطيات هذه الرسالة وتحولاتها الحضارية وتبدلاتها الزمانية والمكانية. وهذا ما لا نستطيع الوصول إليه سوى عن طريق القبض على قوامات الحضارة الكبرى وأدواتها المثلى.

الجنونية التي قطعها الوعي الغربي وقد سلم القيادة لوسائل الإعلام واستسلم لتوجيهها وحكمها خصوصاً في العقد الأخير من القرن الماضي. وأما المحطة الرابعة - محطة الوصول واكتمال رسم الصورة "الجديدة" في الوعي الثقافي الأمريكي خاصة - ولا جدال في ذلك - الحوادث الإجرامي الشنيع الذي كانت الولايات المتحدة الأمريكية عرضة له في يوم الحزن والأسى، يوم ١١ سبتمبر ٢٠٠١م.

ولكن قبل هذا كله نطرح التساؤل على العلوي. هل ما زال مصطلح العالم الإسلامي على ذات المستوى من تقاطبات المعنى. بمعنى أدق أنني شخصياً أذهب في اتجاه أولئك الذين استحدثوا في تنقيحهم البحثي النظر إلى مفهوم العالم الإسلامي بالتركيز على (وحدة العمل) بدلاً من (اعتبارات الجغرافيا) ومن هؤلاء المفكر الكبير د. جمال حمدان الذي يقول في إحدى أطروحاته "إن وحدة العالم الإسلامي هي وحدة عمل وليست وحدة كيان، وحدة إسلام وليس وحدة مسلمين... وأنه فيما عدا الوحدة الدينية المؤكدة، لا يمثل العالم الإسلامي وحدة طبيعية بشرية... ومن ثم يقرر أن "الجغرافيا والقومية مثلنا العائق التاريخي أمام تكوين الإسلام كقوة - دولة".

ولكننا يعلم أيضاً في زاوية أخرى أن مسألة تجزئة جسد العالم الإسلامي بعد انهيار دولة الخلافة وتقسيمها إلى نحو ستين دولة ومع انتشار ظاهرة الدولة القومية أصبح العامل الجغرافي غير ذي جدوى في مسألة النظر إلى أبعاد العالم الإسلامي والظاهرة الإسلامية حيث صارت خريطة العالم الإسلامي تضم بالإضافة إلى الدول القومية الموصوفة بالإسلامية، (٢٦) إقليمياً إسلامياً متمتعاً بالحكم الذاتي، أو كائناً ضمن دول غير إسلامية يقطنها خمس أبناء الأمة الإسلامية، ومن ثم تعد خريطة العالم الإسلامي السياسية تستند إلى أي منطق. وعليه فإن المفهوم من الزاوية الجغرافية أصبح لا يعبر عن وحدة حقيقية ومن هنا ننتقل إلى النظر إليه من زاوية العمل التي هي الأخرى نجد عندها أن المفهوم يسير ليصبح مفهوماً إشكالياً يفتقد إلى التحديد التام في ظل هذا التنافر الواضح بين أقطار العالم الإسلامي وفي ظل هذه الإشكالات السياسية والفكرية التي تنهش الجسد الإسلامي بشكل، ومن هنا فقد أصبح التعبير الشكلاني لمفهوم العالم الإسلامي إنما هو قاصر من خلال التعبير عنه من خلال كيانات ومؤسسات أو تنظيمات مثل منظمة المؤتمر الإسلامي مثلاً.

وفي إطار استشراف مستقبل العالم الإسلامي يطرح العلوي ثلاثة أسئلة رئيسة معتبراً أن في الإجابة عليها يجد الحديث عن مستقبل العالم الإسلامي مادته وشرعيته معاً. السؤال الأول يتعلق بالمقتضيات المنطقية والأسس الثقافية العميقة التي تجيز القول

إن مصطلح العالم الإسلامي اليوم إذا ما ذهبنا إلى اعتباره جزءاً من النظام الدولي المكون من عدة نظم دولية فرعية: إقليمية ونوعية- فهو بحسب باحثين يشير إلى مجموعة الدول الإسلامية وإلى المسلمين في دول أخرى؛ وهو بالأساس (مصطلح جيوسياسي) يترجم واقع الأمة الإسلامية الحالي، خاصة من حيث عدم انضوائها في إطار دولة واحدة. وهو في شق منه قائم على أسس عقدية بحيث يصطلح على كونه مفهوماً معرفياً يعكس رؤية المسلمين في الأقطار الإسلامية وغير الإسلامية إلى أنفسهم في ضوء وجودهم العالمي والحضاري ونظرتهم إلى الآخر وفق المعطيات التي يبني عليها وجودهم الحضاري. وعليه فإن الرابطة العقدية (كمحور أساسي معرفي) يتكئ عليه هذا المفهوم هي التي من المفترض أن تكون تربط بين شعوب متنوعة الأقاليم والأعراق والألوان والأجناس تنتمي لهذه الأمة، ويذهب البعض إلى مناقشة المفهوم في شقه السياسي بالنظر للعالم الإسلامي ككيان دولة له أبعاده وقواماته وتنظيماته..

وعليه في ضوء التحليل المفاهيمي السابق فإن البحث في قضية العالم الإسلامي والأبعاد المرتبطة به سواء كانت تاريخية أو راهنية أو مستقبلية يقتضي تحديد مدخل أساسي للمناقشة، هذا المدخل ينطلق بالضرورة من بوابة المفهوم الذي تناقش منه هذا العالم سواء كان في بعده الإيديولوجي أو السياسي أو الجيو سياسي أو الثقافي. باعتبار أن تحديد هذا المدخل يسهم في الفهم العميق والمؤصل للقضية. وهذا ما لم نجد حاضراً في تحليل العلوي في أطروحته. فالأطروحة تتقاطع بين المفاهيم الإيديولوجية والمفاهيم المعرفية والسياسية في سبيل استشراف مستقبل العالم العربي.

يتطرق العلوي في مقالته إلى تبيان المنعطقات التاريخية البارزة والمؤثرة التي أثرت على مفهوم العالم الإسلامي داخل بناء الوعي العام من زاوية وإزاء وجوده الحضاري من زاوية أخرى. وهو في تفصيله للأحداث هذه نجده يمارس نفس التآرجح في مسألة مداخل الفهم غير أن هذا التنوع في سرد الأحداث ربما يسير نحو هدف واضح وهو انتقاء الأحداث الأكثر فاعلية في التأثير على الوعي الإسلامي العام. فيتحدث العلوي أن هناك أربع محطات أثرت في وجود العالم الإسلامي وفي صورة الوعي الراسخة في العالم العربي عن هذا العالم.

المحطة الأولى حرب أكتوبر ١٩٧٣م - حيث يذكر أن من نتائجها الارتفاع الحاصل في أسعار البترول، ومن ثم اكتشاف الإسلام "خصماً" يتهدد الرفاه الأمريكي خاصة. والمحطة الثانية، هي "محطة الرهائن" - الرهائن الأمريكيين الذين استمر احتجازهم في السفارة الأمريكية في طهران شهوراً عديدة متصلة، وصادمة للوعي الثقافي الأمريكي. أما المحطة ما قبل الأخيرة - في الرحلة